

«الفن المعاصر برعاية نسوية»

في العدد 86 من مجلة الإمارات الثقافية ©

نور عسليّة

تكاد لا تخلو دراسة حول دور النساء في الفن من الإشادة بمقال «لماذا لم يكن هناك فنانات عظيمات» للباحثة الأمريكية ليندا نوكلين (١٩٣٠-٢٠١٧)، أو من اقتباس منه. ومصدر أهمية المقال هو أولاً ندرة هذا النوع من الدراسات النسوية التخصصية في وقت صدوره عام ١٩٧١م، وثانياً أنه بقدر ما ينتقد النزعة الذكورية الفوقية التي كانت تحتكر إلى حينه قراءة وسرد تاريخ الفن، يويّخ على نحو ما الحركات النسوية المتطرفة. فمحتوى المقال لا يحلّ فعلياً «لماذا لم يكن هناك فنانات عظيمات»، بل لماذا تمّ إهمال أسماء الفنانات العظيمات اللواتي كنّ دوماً حاضرات. تعتبر نوكلين أن هذا التساؤل (عنوان المقال) ينطوي بحد ذاته على قدر كبير من التهميش ويؤدي إلى عكس القضية، والتي تراها هي قضية فكرية بالدرجة الأولى. تُبرز هذه الإضاءة البحثية عدم كفاية الدراسات التخصصية، وأن الخطابات النسوية الهجومية لم تأت بفائدة كتلك التي أتت بها دراسة «Thinking About Women» للكاتبة البريطانية ماري إيلمان على سبيل المثال، والتي تذكرها نوكلين في مقالها.

الملفت أن الكاتبة تستشهد منذ البداية بالفيلسوف والمنظر جون ستيوارت ميل (١٨٠٦-١٨٧٣) الداعي إلى التحرر والمساواة بشكل عملي بين الجنسين وبين البشر بصورة عامة. يقول هذا الاستشهاد بأن تصحيح صورة ودور النساء في المجالات الفكرية لن يتحقق إلا بتضامن بين النساء والرجال. وبالطبع، فإن دور النساء في الفن لم يقتصر على الممارسة الفنية، فالدور الآخر الذي قد يكون أشد تأثيراً على تاريخ الفن هو الرعاية «Le Mécenat» والدعم والاقتناء. كان هذا الدور يتمثل سابقاً في احتكار البلاط الملكي للفنانين، والذي زخر بتصوير الملكات والأميرات والوصيفات، ممتداً حتى عصر الباروك. تتغير هذه الصيغة جذرياً ابتداءً من أوائل القرن التاسع عشر، نحو نهج أكثر تحرراً وانعتاقاً، ثم يعود احتكار الفنانين ليظهر مجدداً ابتداءً من خمسينات القرن العشرين على شكل عقود بين الفنانين وصلات العرض. نوّد أن نستحضر هنا أمثلة توضح كيف كان للنساء دوراً فاعلاً في دعم وتمكين الفنانين في الفترة المعاصرة.

منذ وصولها إلى باريس، نشطت جيرترود شتاين (١٨٧٤-١٩٤٦م)، الكاتبة الأمريكية من أصول ألمانية يهودية، كراعية للفن. تعرفت على بابلو بيكاسو الذي قام برسمها عام ١٩٠٦ في بورتريه كانت تعرضه بشكل دائم في منزلها في باريس. هي بدورها زارته مراراً في مرسمه في مونمارتر، وحتى عام ١٩١٠م كانت قد اقتنت عدداً من أعماله، فكانت بذلك قد سبقت المقتنيتين دانيال هنري كانويلر (١٨٨٤-١٩٧٩م) وبول غيوم (١٨٩١-١٩٣٤م)، هما اللذان أوليا اهتماماً استثنائياً لأعمال بيكاسو. اعتُبر بيكاسو من قبل محيطه من الفنانين فناً محظوظاً، ففي تلك اللحظة من تاريخ فرنسا كانت تفوح رائحة الحرب العالمية الأولى وكان شراء أعمال فنية، لولا إيمان بعض المقتنين بعظمة الفن وضرورته، لبيدو حالة ترف غير منطقية.

ومن أمريكا، نستحضر مثلاً آخر. في عام ١٩١٥، انتقل مارسيل دوشامب إلى أمريكا رغبة منه بالتحرر من الجو الفرنسي الذي بدا له أقل حريّة من البلد الجديد. استقبلته لويز أرنسبرغ وزوجها والتر، اثنان من أهم المقتنين للفن في

نيويورك في حينها، في منزلها لإقامة مفتوحة، كان ذلك رغبة منهما بدعم دوشامب الفنان المتمرد. سبق ذلك رغبتها الملحة باقتناء عمله «Nu descendant un escalier» (عاري ينزل الدرج) الذي عُرض في نيويورك عام ١٩١٣م، الأمنية التي تحققت عام ١٩١٩م. في هذه الأثناء كانت لويز أرنسبرغ مهتمة للغاية بتشجيع الفن، وكانت النتيجة أن حولت مع زوجها منزلها إلى مقرّ لعرض التجارب الفنية الجديدة والثورية، خصوصاً المستهجنة في تلك الفترة والتي لم تكن تلقى التشجيع للعرض دوماً، و أبرزها الدادائية، وليدة فكر مارسيل دوشامب.

ثمّ في أبريل عام ١٩٢٠م، قام مارسيل دوشامب بالاتفاق مع كل من الفنانة وراعية الفن الأمريكية كاترين دراير (١٨٧٧-١٩٥٢م) و الفنان الأمريكي مان راي (١٨٩٠-١٩٧٦م) بإنشاء جمعية فنيّة، أطلق عليها راي اسم *Société Anonyme*، و أضاف دوشامب لهذه التسمية لاحقة *Inc* اختصاراً لكلمة *Incorporated* (على غرار المصطلح التجاري للشركات المدمجة). في هذه المرحلة كان الفنانان، دوشامب وراي، في حالة سعي لإثبات وجودهما في أمريكا، وكانا في بداية الثلاثينات من العمر، في حين كانت دراير في منتصف الأربعينات، وكانت في بلدها في موقع أكثر استقراراً مهنيّاً ومادياً منهما. كان مان راي في حالة احتجاج على عسر المسيرة الفنية للمصور الفوتوغرافي، سجل اعتراضه هذا في مذكراته التي صدرت عام ١٩٦٣ تحت عنوان «self portrait» (صورة ذاتية) عندما كتب:

«مجرد التفكير في الاضطرار إلى تصوير أعمال الآخرين يبدو لي بغيضاً، تبدو لي هذه المهمة غير جديرة بفنان». لا بد هنا من التذكير بأن التصوير الضوئي في تلك الفترة كان لا يزال يتأرجح في التصنيف بين كونه فناً أو حرفة توثيقية أو تذكرية. وأما مارسيل دوشامب كان لا يزال، رغم دعم الزوج أرنسبرغ له، متوهج الطموح لإثبات أهمية فكره الثوري في الفن. فتحت هذه الشراكة مع دراير أبواب متحف بروكلين حيث عرضت جمعية «Société Anonyme» مراراً. دعمت دراير توجه دوشامب، ليس فقط بشراكتها، بل كانت الاسم الآخر البارز المتخصص باقتناء أعماله. فهي المقتنية لعمله الأشهر: «Le grand verre» (الزجاج الكبير) أو «La mariée mise à nu par ses célibataires même»، وكان اقتنائها لهذا العمل بالذات، ليس مادياً فحسب، بل دليلاً واضحاً على إيمانها به، حيث كان الفنان قد أعلن بعد تسع سنوات من العمل أنه سيتوقف تاركاً «الزجاج الكبير» في حالة «غير منته»، وما هذه الإشارة إلا إمعاناً منه بتكريس البعد المفاهيمي.

لا بد من الإشارة إلى أن نشاط المقتنين في النصف الأول من القرن العشرين كان مقترناً بدعم دور النشر والكتاب و المفكرين، إذ كان لطباعة صور الأعمال و تقديمها دوراً أساسياً في إبراز قيمة العمل الفني، مثل إصدار مينوتور «Minotaure» التخصصي عن دار ألبرت سكير (١٩٠٤-١٩٧٣م)، كتب فيه أندريه بريتون عن بيكاسو ودوشامب وكان غلاف عددها الأول عمل كولاج لبيكاسو يصوّر المينوتور (رجل برأس ثور).

ولما كان للاقتناء دوراً كبيراً في دعم الفنان، يكاد يضاهي دور الكتابات حتى لو كانت من قبل أشهر الكتاب، أولاً لأنه يشكّل ضماناً مادياً، وثانياً لأنه يدعم اسم الفنان وشهرته من خلال تعزيز ثقة الفاعلين والقيمين على الفن بعمله، استمرت جيرترود شتاين باقتناء أعمال بيكاسو، و استمرت كاترين دراير باقتناء أعمال دوشامب وكذلك فعل كل من والتر و ليزا أرنسبرغ ويشير أرفيف المحفوظات في متحف فيلادلفيا أن العديد من أعمال دوشامب قد دخل المتحف باسمهما. في تلك الفترة كان شراء الفن لم يأخذ بعد مساراً تجارياً بالمعنى الحالي كبورصة للفن، كانت عظمة الفن المحرك الأول لهذا الفعل.

اليوم في العواصم الفنية الكبرى تتصدر النساء مهام عديدة ومفصلية متعلقة بدعم وتمكين الفن والفنانين، ليس فقط في مواقع الإدارة، بل في مواقع البحث الأكاديمي والإشراف على حفظ الأعمال وتنظيم المعارض الكبرى. ومنذ البدايات، كان هناك نساء داعمات للفن.

الأسماء حسب ورودها :

Linda Nochlin, Mary Ellmann, John Stuart Mill, Gertrude Stein, Pablo Picasso,
Daniel-Henry Kahnweiler, Paul Guillaume, Marcel Duchamp, Louise Arensberg,
.Walter Arensberg, Katherine Dreier, Man Ray, Albert Skira, André Breton